

مبادئ العمارة الإسلامية وتحولاتها المعاصرة: قراءة تحليلية في الشكل (*)

هاني محمد القحطاني (**)

أستاذ العمارة الإسلامية والنقد المعماري
في جامعة الملك فيصل، الدمام.

|||||

مقدمة

كانت العمارة الإسلامية، وما زالت - باعتبارها التجسيد المادي الأبرز للحضارة الإسلامية - محط اهتمام الكثير من الباحثين والنقاد والمستشرقين. وقد أُلّف فيها الكثير من البحوث، وأُصدر العديد من الدراسات بمختلف اللغات.

غير أن العمارة، التي كان يفترض أن تكون بؤرة اهتمام هذه الدراسات، بقيت تدور في مجال اهتمام دراسات تاريخية أو أكاديمية بحثية ضمن مناهج وأطر محددة سلفاً، ولم تتم دراستها معمارياً بالتفصيل ضمن مناهج معمارية حديثة تأخذ في أهدافها محاولة فهم هذه العمارة والانتقال بها إلى آفاق جديدة كلية من الفهم والممارسة. من هنا تنبع أهمية هذه الدراسة. وكما ورد في العنوانين الرئيسي والفرعي للكتاب، فإن هذه دراسة معمارية في الأساس. صاحب الدراسة مهندس معماري، والمنهج المتبع في تأليف العمل يضع نصب عينيه أن العمارة بناء ذو شكل ثلاثي الأبعاد بُني ضمن سياقات تاريخية وجغرافية وثقافية متنوعة، ولأغراض محددة وبمواد بناء وأساليب إنشاء معيّنة.

يعكس الشكل العام للعمارة الإسلامية بمختلف صورها وتجلياتها هذه العوامل مجتمعة. ولذلك فإن تحليل الشكل المعماري يفرض بالضرورة إلى فهم السياقات المختلفة التي بنيت هذه العمارة في كنفها. وبالإضافة إلى القيم المعرفية المتوخاة من تحليل هذه العمارة تهدف الدراسة إلى إيجاد قاعدة معرفية صلبة للمهندسين المعماريين المعاصرين في محاولتهم الارتقاء بالبيئة العمرانية المعاصرة. هذا هو المنهج المتبع في هذه الدراسة، وهذا هو الهدف الرئيسي من ورائها.

(*) تمثل هذه الدراسة خلاصة الكتاب الذي صدر حديثاً عن مركز دراسات الوحدة العربية تحت العنوان

نفسه.

hani.arch@gmail.com.

(**) البريد الإلكتروني:

هذه الدراسة بحث عن نموذج (باراديغم) يتم بموجبه وضع منهجية شاملة لأشكال العمارة الإسلامية ضمن إطار عام لفهم هذه العمارة بأسلوب مبسط، ومن ثم البناء على معطيات هذا النموذج في عمارة اليوم والغد لإضفاء أبعاد ثقافية وحضارية أصيلة على العمارة المعاصرة في الوطن العربي والعالم الإسلامي اليوم.

ينقسم الكتاب إلى قسمين. في القسم الأول خمسة فصول. عناوين هذه الفصول الخمسة هي ذاتها المبادئ والمفاهيم الخمسة التي تؤلف في مجموعها النظرية التي يطرحها الكتاب. الفصل الأول خاص بمفهوم «الاحتواء»، والفصل الثاني خاص بمفهوم «الظهور»، والفصل الثالث خاص بمفهوم «التحول»، والفصل الرابع خاص بمفهوم «الطبقات»، والفصل الخامس خاص بمفهوم «التكرار». هذه هي عناوين الفصول الخمسة الرئيسية في الكتاب، وهي المادة العلمية للكتاب، وأهم ما فيه أنها عناصر النظرية النموذج «الباراديغم» الذي يقدمه المؤلف في هذا القسم من الكتاب.

يعبر نسيج المدينة الإسلامية عن مفهومي الاحتواء والظهور بكل وضوح على المستويات الوظيفية والاجتماعية والبيئية والأمنية.

أما القسم الثاني فيحتوي على ثلاثة فصول: الفصل السادس يتناول العمارة في العالم الإسلامي في أثناء عصر الحداثة وبعده. ويستعرض الفصل السابع نماذج معاصرة لتحولات العمارة الإسلامية ضمن المفاهيم الخمسة التي تمت الإشارة إليها آنفاً. أما الفصل الثامن فهو محاولة لاستشراف آفاق العمارة الإسلامية ضمن أطر فكرية ومنهجية معينة.

وقبل الخوض في تفاصيل الكتاب بقسميه، يقف الباحث سريعاً في المقدمة عند بعض المحطات الأساسية التي شكلت على مدى الزمن المادة الأساسية للكتاب، وجاءت بعنوان «العمارة الإسلامية بين ثبات التاريخ وتنوع الجغرافيا» قراءة مختصرة لأهم مراحل تطور العمارة الإسلامية، حيث يتطرق الكاتب في هذا الفصل التمهيدي، وبإيجاز شديد، إلى عدد من الظواهر البيئية والثقافية المصاحبة لنشوء العمارة الإسلامية. يناقش دور الصحراء في تكوين الحضارة والعمارة الإسلامية، ويتطرق إلى مفهوم الفن الإسلامي ضمن هذا السياق.

كما تتطرق المقدمة أيضاً إلى تكوين العرب الاجتماعي في بيئتهم الصحراوية، وتأثير ذلك في عمارتهم. فيناقش الكاتب مفهوم القبيلة وتأثيره في تكوين الدولة والعمارة الإسلاميتين، ويناقش أيضاً طبيعة التجارة البيئية عبر العالم الإسلامي والعلاقة الجدلية بين الصحارى والمدن. ويشير الكاتب أيضاً إلى ظاهرة ازدهار عمارة الأطراف على حساب عمارة المراكز وما يعنيه ذلك في السياق التاريخي والجغرافي للعالم الإسلامي. وكما يستدل من عنوان المقدمة، يسلط الكاتب الضوء على التطور التاريخي للعمارة الإسلامية كما تجلت في نظام التحقيب التاريخي للدول والممالك الإسلامية في سياق التاريخ السياسي والاجتماعي لهذه الممالك والدول، بدءاً من دولة الخلافة الراشدة وصولاً إلى آخر مراحل تجليات السلطنة العثمانية. وبعد استعراض سريع ومشوق لأهم فصول هذه العمارة، يبرز الكاتب دور الجغرافيا الحاسم

في تكوين العمارة الإسلامية. وهنا يقف المؤلف على استنتاج مهم؛ فعندما يشهد التاريخ السياسي والاجتماعي مرحلة مزدهرة من البناء ينعكس ذلك بدوره على العمارة، هنا تزدهر عمارة الهياكل، من مساجد وقصور وأضرحة ومدارس وأسواق، وينحسر مفهوم العمارة التقليدية. وعندما تبدأ الدولة بمعناها السياسي والاجتماعي بالضعف والانهييار، تضعف حركة البناء وتختفي الهياكل. هنا تزدهر العمارة التقليدية مدفوعة بأسباب جغرافية بحتة. هكذا، عندما يغيب أو يضعف التاريخ، يعظم دور الجغرافيا. هذه هي العلاقة الرئيسية التي يستنتجها الباحث في مقدمة الكتاب، وهو ما يسميه «أفقية التاريخ وعمودية الجغرافيا» في تكوين العمارة الإسلامية. وهناك كثير من الأمثلة التي يستعين بها الكاتب في توضيح هذه العلاقة. ومن الواضح تأثر الباحث في هذا السياق بما ورد في مقدمة ابن خلدون.

- ١ -

بعد المقدمة يبدأ الباحث بتقديم مفاهيم نظريته في خمسة فصول بدءاً بمفهوم **الاحتواء** في الفصل الأول. يعرف الكاتب الاحتواء بأنه توجه العمارة بأشكالها كافة نحو الداخل في تجاهل يبدو متعمداً لجميع أوجه البناء الخارجية. هذا هو الاحتواء في أبسط صورته. وسواء أكان موضوع العمارة مدينة كاملة أم بناء صغيراً، فإن الاهتمام بالداخل مقدم على جميع الاهتمامات المتعلقة بعملية البناء. والاحتواء مفهوم يضرب عميقاً في صميم الحضارة والثقافة الإسلامية كما يتجلى في الفن واللباس والتكوين الاجتماعي، وقد وجد طريقه إلى العمارة.

يعبر نسيج المدينة الإسلامية المتشابك عن مفهوم الاحتواء بكل وضوح، سواء أكان احتواءً على المستوى الوظيفي (المعيشي) أم على المستوى الاجتماعي (تجاور الناس بناءً على أسس القرى والدم) أم بيئياً (للحفاظ على درجات حرارة مناسبة معظم أوقات النهار). وبطبيعة الحال فإن للصحراء دوراً مهماً في الاحتواء. كما أن الحاجة إلى الأمن والعيش في مجموعات أسرية متقاربة جنباً إلى جنب دوراً في ذلك. كما أن الاحتواء يحقق مطلب الخصوصية.

تعتبر الجدران العناصر المعمارية الأكثر وضوحاً في التعبير عن مفهوم الاحتواء في العمارة الإسلامية. جدران المدينة العربية صماء، ليس فيها من علامات الحياة إلا النزر اليسير. كما تعتبر البوابات من الناحية الثقافية تجسيدا آخر لمفهوم الاحتواء. في نسيج المدينة الإسلامية المتشابك البوابات هي إعلان ملكية وعنوان خصوصية. في هذا النمط من التجمعات الحضرية تختفي مظاهر الحياة الاجتماعية خارج حدود المدينة، وتصبح للراصد من الخارج ساكنة بلا حراك، لكنها من الداخل تعج بجميع أشكال الحياة. وباستثناء بعض الساحات العامة والأفنية الداخلية لبيوت المدينة، تتحول الحياة بجميع تفاصيلها إلى نشاط داخلي بحت. وينطبق الحال على هياكل المدينة كالمساجد والقصور والمدارس والأسواق. في هذه المباني تختفي أو تكاد الجوانب التي تدل على أهمية البناء من الخارج. فقط عن طريق منارة المسجد أو المدرسة، أو عن طريق بوابة السوق يشعر المرء بأنه انتقل إلى بناء من نوع آخر. وفي مقابل البساطة اللامتناهية لشكل الهيكل من الخارج، يأتي غنى الداخل في أهميته وحيويته وزخارفه على نقيض تام مع الخارج. هكذا تتحول العمارة إلى نشاط وظيفي داخلي صرف، ويتحول

نسيج المدينة إلى كتلة واحدة متشابكة لا مكان فيها لأي فراغ مهدور. هكذا تصبح المدينة أقرب إلى البناء العضوي منها إلى أشكال مبنية من الطين أو الطوب أو الحجارة. إن مدن الاحتواء السائدة في الوطن العربي والعالم الإسلامي وهياكلها هي عمارة مجتمعات سكنية في الأساس، وهي بذلك تعبير واضح عن الطبيعة الساكنة لهذه المجتمعات. هذا هو مفهوم الاحتواء في أبسط صوره ويبقى تطبيقه على مختلف المدن والعناصر الإسلامية عبر خريطة العالم الإسلامي الجغرافية مجرد تفاصيل ليس إلا.

- ٢ -

الظهور عكس الاحتواء. وإذا كان الاحتواء هو الاتجاه بكل جوانب الحياة في المدينة الإسلامية وهياكلها نحو الداخل، فإن الظهور يعني العكس تماماً. إنه تأكيد للجانب الخارجي المرئي لنسيج العمارة وهياكلها. الظهور في العمارة الإسلامية، كما جاء في الفصل الثاني مدفوع بأسباب مكمل لتلك الفاعلة في عمارة الاحتواء؛ ففي نسيج المدينة الإسلامية الشديد التشابك تأتي أفنية المساكن والميادين العامة لتكسر من حدة نسيج الاحتواء. إنها توفر مساحات مهمة للعمارة للاتصال بالعالم الخارجي. في هذه الأفنية يمكن للناس كسر حدة الاحتواء المطبقة في الداخل. ودون هذه الأفنية تتحول الحياة في المدينة الإسلامية إلى ظلام دامس. هذا عن الظهور في نسيج مدن الاحتواء، وهو يبقى ظهوراً محكوماً بسياق الاحتواء المطبق عليه من كل جانب. إنه ظهور مدفوع بأسباب بيئية بحتة. ربما كانت سامراء، عاصمة الخلافة العباسية لفترة وجيزة من الزمن، هي التعبير الأهم لمدن الظهور في العمارة الإسلامية. فعلى عكس مدن الاحتواء التقليدية، فإن مدينة سامراء خُططت وفق نظام تخطيط شبكي متعامد يتيح قدراً كبيراً من الاحتكاك بالخارج. هنا تصبح واجهات قصور المدينة، التي فاق عددها الخمسين والواحدة منها بحجم مدينة، بادية للعيان. وهنا يختفي سور المدينة ونسيجها المتشابك، وتصبح طرقات المدينة الطويلة والمتعامدة وساحاتها وهياكلها العناصر الأكثر أهمية في شكل المدينة. وما زالت الملوية، منارة جامع المدينة الكبير، تقف شاهداً حياً على هذا النوع من العمارة الذي عرفته المدينة يوماً ما.

كما تعتبر مدينة فاتح بوسكري بجوار دلهي في الهند، وهي التي بناها الإمبراطور المغولي أكبر في القرن السابع عشر، مثالاً آخر لعمارة الظهور في سياق مختلف تماماً. هذا على مستوى المدينة ككل، غير أن هناك مباني أعلاماً كثيرة في العالم الإسلامي تعتبر أمثلة بارزة على مفهوم الظهور. ربما كانت قبة الصخرة بشكلها المثلث وقبتها المذهبة وهي تتوسط الحرم الإبراهيمي الشريف أوضح مثال على عمارة الظهور في العمارة الإسلامية. كما أن ارتباطها بمعجزة الإسراء والمعراج يعزز من هذا الاتجاه. كما يعتبر ميدان الراجستان في سمرقند، عاصمة الدولة التيمورية التي تعتبر مبانيها مباني ظهور، أحد أهم الميادين التي تجسد مفهوم الظهور في نسيج المدينة الإسلامية. ويبقى تاج محل في أجرا بالهند المثال الأهم لعمارة الظهور في العمارة الإسلامية؛ فتاج محل بناء بني للرؤية من الخارج لكي يصبح أيقونة ترتفع على عرش الجمال العالمي. إنه تجسيد حي بأوضح صوره لعمارة الظهور في العالم الإسلامي.

- ٣ -

إذا كان الاحتواء هو جوهر العمارة الإسلامية، وإذا كان الظهور مرادفاً للاحتواء ومكملاً له، فإن التحول معني بالآليات والميكانيزمات التي يتم بموجبها تحول العمارة من احتواء إلى ظهور أو العكس. هذا هو ببساطة مفهوم التحول في العمارة الإسلامية، كما ورد في الفصل الثالث. والتحول عملية مستمرة في تكوين العمارة الإسلامية، وهو يتخذ من الزمن بعداً له. وقد عرفت العمارة الإسلامية عبر تاريخها الطويل صوراً كثيرة من التحول يصعب الإحاطة بتفاصيله كلها. يمكن تصور العمارة الإسلامية على أنها عملية تحول عضوي طويل الأمد

لأشكال معمارية ما لبثت أن انصهرت - بتأثير من الإسلام - في بوتقة ثقافية واحدة. ففي العراق تحولت العمارة الآشورية والبابلية القديمة إلى عمارة عربية وإسلامية خالصة قدمت إليها من شبه جزيرة العرب وقد امتزجت بالفن الفارسي. وربما كانت منارة جامع سامراء الكبير المعروفة بالملوية، وهي تعيد إلى الأذهان فكرة الزيجورات الآشورية، أوضح مثال

**يُعنى مفهوم التحول في
العمارة الإسلامية بالآليات
والميكانيزمات التي يتم بموجبها
تحول العمارة من احتواء إلى
ظهور أو العكس.**

على ذلك. وفي بلاد الشام حول الأمويون كثيراً من الكنائس والمعابد إلى مساجد يشار إليها بالبنان، ويعتبر الجامع الأموي في دمشق خير مثال على ذلك. وفي مصر كانت العمارة الإسلامية انعكاساً مباشراً للتأثيرات الوافدة إليها من الشرق، بدءاً من العصر الطولوني وصولاً إلى العهد العثماني. العمارة الإسلامية في مصر انعكاس واضح لمفهوم التحول الذي مرت به العمارة الإسلامية في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي. وفي الأندلس سرعان ما تحولت العمارة الإسلامية القادمة من الشرق إلى عمارة أندلسية خالصة استمدت مفرداتها من شبه الجزيرة الإيبيرية.

كان هذا في مغرب العالم الإسلامي. وفي مشرقه يجد مفهوم التحول في شبه القارة الهندية أبرز تعبير له. العمارة الإسلامية في الهند هي تحول طويل الأمد لعمارة إسلامية آتية من الشمال وتراث هندي محلي خصب. عبر هذا التلاقح الحضاري تمت كتابة أحد أهم فصول العمارة الإسلامية على الإطلاق. وفي أواسط آسيا وأفغانستان، حول التيموريون، ومن قبلهم السلاجقة، العمارة الإسلامية القادمة من مهد الإسلام إلى عمارة جديدة كلية. هنا ازدهر مفهوم الفناء الداخلي خصوصاً في عمارة الهياكل، وأصبح المسجد ذو الفناء الداخلي الفسيح البناء النموذجي لجميع أنواع البناء في العمارة الإسلامية في مشرق العالم الإسلامي. هنا اتسع البناء وارتفع وازدهرت زخارفه. هكذا تحولت العمارة من احتواء إلى ظهور.

وتأتي العمارة الصفوية في إيران استمراراً أفقياً ذا طابع محلي بحث لما ورثه الصفويون من أسلافهم السلاجقة والتيموريين. وبمجيء الأتراك العثمانيين، اتخذ مفهوم التحول فصلاً آخر. وباتجاههم غرباً من أواسط آسيا نحو أوروبا، جلب الأتراك العثمانيون معهم تراثهم الشرقي وزرعوه في أرض غربية. هذا هو حال القباب الكثيرة العدد والصغيرة الحجم التي

بناها العثمانيون في موطنهم الجديد تركيا، واستمروا على هذا الحال قرنين من الزمان. وبعد فتح القسطنطينية، تحولت هذه القباب إلى قباب عريضة بالغة الارتفاع والاتساع. هذا هو التحول الكبير الذي شهدته العمارة العثمانية. لقد بلغت المساجد العثمانية في إسطنبول وأدرنة الذروة في تحول القبة الصغيرة الواحدة التي ورثوها عن السلاجقة إلى مساجد عملاقة لا يوجد ما يماثلها في العالم الإسلامي. وقد شهدت الزخارف المعمارية، باعتبارها من أهم تجليات هذه العمارة، تحولات مثيرة لا تقل أهمية، مصحوبة بتحويلات بدرجات مختلفة في أساليب البناء والإنشاء. وقد كانت هذه التحولات كلها مصحوبة بتحويلات مماثلة في السياسة والاقتصاد والمجتمع.

- ٤ -

في الفصل الرابع تقديم لمفهوم الطبقات، التي هي مجمل اللبنة التي تتكون منها العمارة الإسلامية، احتواءً كانت أم ظهوراً. ففي عمارة الاحتواء تتكون المدينة من طبقات مترتبة من الفراغات ذات الأحجام المختلفة، بدءاً بساحات المدينة وصولاً إلى الفراغ الخاص بكل فرد على حدة. وما يقال عن الفراغ ينطبق أيضاً على العناصر المكونة للفراغ، من جدران وأسقف وأرضيات، وما يصاحبها من عناصر أثاث أو عناصر زخرفية أو إنشائية، أو غير ذلك. وتتأثر الطبقات بتضاريس المدينة وتوجهها نحو الشمس وبكثافتها السكانية. وهنا تختلف طبقات كل مدينة عن الأخرى، وهو ما ينتج منه بالتالي اختلاف الأشكال العامة للمدن الإسلامية لاختلاف الطبقات الداخلة في تكوينها. وتعتبر القاهرة وهاكلها أمثلة بارزة على مفهوم الطبقات في تكوين المدينة الإسلامية. القاهرة من الناحية التاريخية هي تراكم لطبقات من البناء تركت آثارها في النسيج العمراني للمدينة بدءاً بالفتح الإسلامي وصولاً إلى العصر العثماني.

كما يجسد الجامع الأزهر بحد ذاته مفهوم الطبقات في عمارة هياكل المدينة. وتجسد المدن التاريخية في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، مثل دمشق وحلب وفاس والقيروان وصنعاء وأصفهان وبخارى وسمرقند وغيرها الكثير، مفهوم الطبقات كل بطريقته الخاصة وفي سياقه الخاص. هذا على مستوى المدينة، أما على مستوى الهياكل، فتلعب الطبقات الدور نفسه. الهيكل الواحد، مسجداً كان أم مدرسة أم قصراً، هو عبارة عن تسلسل لعدد من الطبقات (فراغات) أو جدران أو عناصر إنشائية أو زخارف تكون في مجموعها عمارة الهيكل. في هياكل الاحتواء، الطبقات أكثر عضوية وأعمق بعداً من مثيلاتها في هياكل الظهور، حيث يمكن ببساطة ملاحظة الطبقات في الأشكال الخارجية لهذه الهياكل. وتعتبر العمارة المغولية في الهند والعمارة التيمورية في أواسط آسيا أبرز تعبير للظهور في العمارة الإسلامية. هنا ارتفع البناء، وازدهرت زخارفه، وأصبحت الأبنية موجهة إلى الخارج أكثر من اهتمامها بالداخل. هنا أصبحت البوابات والمناظر والقباب والزخارف المفردات الأكثر أهمية في هذه العمائر. وتعكس التفاصيل الإنشائية والزخرفية لهذه العمائر مفهوم الطبقات في هذه الأبنية بكل وضوح. هذا هو مفهوم الطبقات؛ إنه المادة الخام التي تتكون منها العمارة الإسلامية.

- ٥ -

إذا كانت الطبقات لبنات بناء المدن والهيكل الإسلامية، فإن **التكرار** هو المرادف العديدي للطبقات الذي يشكل في مجمله الشكل النهائي للمدن والهيكل الإسلامية. بهذا المعنى فإن التكرار هو البعد الحسابي في عملية البناء. المدينة الإسلامية في شكلها النهائي هي تكرار عددي للبيوت المتلاصقة جنباً إلى جنب بأفنيتهما المفتوحة، ويبقى الفارق بين مدينة وأخرى عائداً إلى حجم المدينة وكثافتها السكانية وطبوغرافيتها. هذا على مستوى المدينة. وفي عمارة الهياكل يجد مفهوم التكرار في نظام الموديول أوضح تعبير له. الموديول هو الوحدة المربعة أو المستطيلة الشكل الناتجة بفعل تكرار الأعمدة والعقود لحمل أسقف البناء. ويعتبر المسجد العربي أوضح مثال على ذلك. المسجد العربي ليس سوى تكرار لعدد يكبر أو يصغر من وحدات الموديول التي تكون في مجموعها شكل المسجد. هكذا أصبحت هياكل المدينة الإسلامية تكراراً لأعداد معينة من الموديول. وبطبيعة الحال، فإن شيوع نظام الموديول متوافق بالضرورة مع الحاجات الوظيفية ومع أساليب البناء والإنشاء المصاحبة له. وإذا كان التكرار على مستوى المدينة عائداً إلى حجم المدينة والعوامل البيئية المحيطة بها، فإن التكرار في هياكل المدينة، من مساجد ومدارس وقصور، عائد إلى قابلية مفهوم الموديول نفسه، كوحدة هندسية، للتكرار. الهياكل الإسلامية - المساجد على سبيل المثال - مبانٍ ممتدة باستمرار.

إن إلقاء نظرة خاطفة على المساقط الأفقية للمساجد الكبرى في مدن الاحتواء التقليدية يشير إلى هذه الحقيقة بوضوح. هكذا أصبح الموديول الوحدة الهندسية الأكثر تكراراً في عمارة الهياكل الإسلامية. كما يعتبر التكرار المفهوم الأساسي في تكوين الزخارف الإسلامية. فنظراً إلى كبر المساحات المقصودة بالزخرفة، تم تقسيمها إلى مساحات وعناصر زخرفية تتكرر باستمرار لتعطي الزخارف الإسلامية أشكالها التي عرفت بها. هكذا يكمل التكرار كما ورد في **الفصل الخامس** منظومة المفاهيم الخمسة، وبه يكتمل البناء النظري (الباراديغم) الذي يتم بموجبه قراءة أشكال العمارة الإسلامية وفق منهجية واحدة مترابطة.

هذه هي المفاهيم الخمسة المكونة للعمارة الإسلامية وقد اكتملت في بناء نظري واحد. وهذا هو موضوع القسم **الأول** من الكتاب.

- ٦ -

يبحث القسم **الثاني** بإيجاز الواقع الراهن للعمارة في الوطن العربي والعالم الإسلامي، وفي هذا القسم ثلاثة فصول. يتم في **الفصل السادس** تقسيم الوطن العربي والعالم الإسلامي إلى أقاليم جغرافية. وبعد تناول التاريخ الحديث لكل إقليم وكل دولة من دوله، يرد وصف مبسط لأهم أوجه التنمية العمرانية التي عرفها كل بلد ضمن إقليم على حدة. وبدءاً بتركيا، البلد الوارث للخلافة الإسلامية، يناقش الكاتب هاجس الهوية في تركيا الحديثة وانعكاس ذلك على ثقافة البلاد وعمارتها. ثم يعرج الكاتب على دور الدولة القطرية ممثلة في حركات التحرر الوطني والقومية العربية في كل من مصر وبلاد الشام، وانعكاس ذلك على عمائر تلك الدول.

ويسهب الكاتب في الحديث عن العراق في سياق الأحداث السياسية المتقلبة التي شهدتها وما زال يشهدها هذا البلد العريق، سليل الخلافة العباسية العريقة.

ونظراً إلى أهمية النفط في تاريخ الدول العربية الحديث، يفرد الكاتب صفحات عدة للحديث عن الدور الحاسم الذي لعبته تلك المادة الريعية الخام المستخرجة من جوف الأرض في التاريخ الحديث لسياسة أقطار الخليج العربي وثقافتها وعمارتها باعتبارها الدول الأكثر إنتاجاً للنفط. ويعرّج الكاتب على العمارة المعاصرة في اليمن باعتبارها استمراراً حاضراً لتاريخ البلاد منذ آلاف السنين، حيث يتمتع اليمن بعمارة تقليدية، ربما لا يضاهيه في ذلك أي بلد آخر في العالم. ونظراً إلى الوحدة الجغرافية لدول شمال أفريقيا والمغرب العربي، فقد خصها الكاتب بنصيب وافر من البحث عن

تاريخها الحديث وعمارتها. ومن مغرب العالم الإسلامي إلى مشرقه يفرد الكاتب صفحات عدة في الحديث عن هاجس الدين واللغة والقومية في إيران، وانعكاس ذلك على عمارتها. ويختتم الكاتب هذا الفصل بالحديث عن العمارة الحديثة في دول شبه القارة الهندية بعد نيلها الاستقلال وتأثرها من جهة بالإرث الحضاري الإسلامي وانفتاحها

**يعتبر مفهوم التكرار في
العمارة الإسلامية المرادف
العدي للطبقات، وهو يشكل
في مجمله الشكل النهائي
للمدن والهياكل الإسلامية.**

من جهة أخرى على تيارات عدة من مدارس العمارة الغربية، وهو ما يجعل من العمارة الحديثة في هذا الجزء من العالم الإسلامي حالة جديرة بالاهتمام. ويبدو من هذا العرض السريع والشامل للتاريخ الحديث لأقطار الوطن العربي والعالم الإسلامي الوحدة الثقافية المشتركة التي تجمع بين هذه الأقطار كافة. وبالرغم من الاختلاف الواضح في أشكال العمارة الحديثة المعاصرة في دول العالم العربي والإسلامي، فإن هذه العمارة مدفوعة بأسباب ثقافية واقتصادية متشابهة إلى درجة كبيرة. ويتضح في هذا الفصل أيضاً تشابه الاهتمامات والحلول المعمارية التي تواجه كل مجموعة من هذه الأقاليم والدول ضمن الوحدة الجغرافية، وهو ما يؤكد أهمية العامل الجغرافي في تطور العمارة الراهنة في الوطن العربي والعالم الإسلامي. هذا الفصل هو مقدمة أساسية للفصل الذي يليه.

- ٧ -

يستعرض الفصل السابع أهم أعمال العمارة الحديثة في الوطن العربي والعالم الإسلامي التي تعتبر تطبيقاً مباشراً أو غير مباشر للأفكار والمفاهيم الخمسة الواردة في القسم الأول من الكتاب. وفي موازاة موضوعات القسم الأول وأفكاره، يتم التعرض لأهم المباني المعاصرة التي تجسد المفاهيم الخمسة التي تم تقديمها في القسم الأول من الكتاب. وبدءاً بمفهوم الاحتواء يستعرض الكاتب عدداً من المباني المعاصرة في بعض الأقطار العربية والإسلامية. وتحظى مدينة الرياض بنصيب وافر من هذه الأمثلة التي تعكس طفرة البناء التي عرفتتها العاصمة السعودية خلال عقد الثمانينيات من القرن الماضي. ويعتبر الحي الدبلوماسي

في مخططة العام وفي مبانيه مثلاً بارزاً على عمارة الاحتواء في سياق حديث تماماً. كما أن بعضاً من مباني الحي - السفارات على سبيل المثال - تعتبر أمثلة حية على التوفيق بين التراث المعماري العربي والإسلامي وتراث الأمم والشعوب ممثلاً في سفاراتها وقد امتزجت في نسيج عمراني ثقافي متعدد المشارب والثقافات في حي واحد. كما أن للمغرب العربي نصيباً وافراً في هذا المجال.

وفيما يتعلق بالظهور، يستعرض الكاتب أهم صور الظهور، وتعددتها في العمارة المعاصرة في الوطن العربي والعالم الإسلامي. وربما كان ظهور الأبراج عالية في سماء العواصم والمدن الإسلامية أبرز تعبير عن ذلك؛ ففي أقصى مشرق العالم الإسلامي يرتفع برجاً بتروناس في وسط العاصمة الماليزية كوالالمبور كمؤشر بارز على الازدهار الاقتصادي الذي عرفته تلك البلاد الفتية. وفي الكويت تأتي أبراج المياه الكروية الشكل، القديمة منها والجديدة، لترسم خط أفق المدينة. وعلى ضفاف الأطلسي يناهز ارتفاع منارة جامع الحسن الثاني المئتي متر. غير أن هذه المنارة ليست سوى العنصر العمودي لما أصبح يعرف بـ «مسجد الدولة»؛ إذ أصبح بناء الجوامع الكبيرة سمة ملازمة للدولة الحديثة، بدءاً بإندونيسيا شرقاً وصولاً إلى ضفاف الأطلسي. لقد أصبح «مسجد الدولة» أكثر من مجرد جامع لأداء الصلاة؛ إنه رمز لظهور الدولة ومؤسساتها وطموحاتها السياسية، وهو يعكس أيضاً تعاظم دور الإسلام السياسي في عالم السياسة الدولية اليوم. وتعبّر أشكال هذه الجوامع عن التنوع المدهش لعمارة مساجد الدولة في ضوء ما يستجد من أحداث سياسية وثقافية ما زالت قيد التشكل إلى الآن.

ربما كان التحول من عمارة الاحتواء إلى عمارة الظهور في جميع أنحاء العالم الإسلامي هو التحول الأهم الذي عرفته العمارة المعاصرة في الوطن العربي والعالم الإسلامي اليوم. فقد تحولت مدن بكاملها من عمارة احتواء تقليدية إلى عمارة جديدة كلية. لقد اختفت الأنسجة التقليدية لمدن الاحتواء، وحلت محلها طرقات متعامدة ونظام البلوك المربع والمستطيل الشكل. هنا اختفى الفناء الداخلي واستبدل بمكعبات من الخرسانة المتراكمة المفصولة تماماً بعضها عن بعض. ومع ذلك، فانه ما زال في الإمكان الحديث عن مبان بعينها تجسد مفهوم التحول الخلاق الذي عرفته بعض المباني المختلفة في بعض أنحاء العالم الإسلامي، منها على سبيل المثال مبنى المركز الترفيهي في الحي الدبلوماسي في الرياض، ومبنى المركز الثقافي والسفارة الهنديين في الكويت، ومبنى برلمان بنغلادش في دكا، والمجلس الثقافي البريطاني في الهند، حيث يمثل كل من هذه المباني بطريقة خاصة صورة من صور التحول التي تؤكد استجابة هذه الأبنية لمتطلبات العصر بأسلوب يذكر بمثيلاتها في العمارة الإسلامية التي تتخذ منها مرجعاً لها. كما تجسد عمارة الخيام الحديثة في منشآت متعددة في الوطن العربي بمختلف تجلياتها تحولاً خلاقاً في مفهوم الخيام التقليدية. على أن مفهوم التحول بمعناه الشامل ينطبق على جميع تلك المباني التي تمثل الاحتواء أو الظهور أو التكرار، كما سيوضح معنا لاحقاً.

ربما كان مفهوم الطبقات هو المفهوم الأقل وضوحاً في تخطيط المدينة العربية الحديثة؛ إذ إن تفكك نظام المدينة التقليدية المتشابك ألغى بصفة حاسمة مفهوم الطبقات المكونة لها، وأصبحت هذه مجرد حالات معزولة ومتناثرة في أشلاء المدينة. ومع ذلك، وضمن مفهوم

التحول الذي شهدته المدن العربية اليوم، فقد جلبت أنماط التخطيط الحديثة للمدينة العربية طبقاتها معها. هنا أصبحت الأرصفة بمحاذاة الشوارع الرئيسية أو الفرعية أو تلك المحاذية للسواحل البحرية طبقات بحد ذاتها في نسيج المدينة العربية المعاصرة. وبغض النظر عن مدى تفرد عمارة هذه الأرصفة، فإن ازدحام السير والحاجة إلى الظل قد جعلاً من أرصفة المدينة طبقات أساسية في عمارتها. ولأسباب اقتصادية أو اجتماعية، تحول بعض هذه الأرصفة إلى عناصر أساسية في عمارة كثير من المدن العربية اليوم. هناك أيضاً عدد من الساحات العامة والميادين ذات الاستخدامات التجارية أو الثقافية والسياحية في أجزاء متفرقة من الأنسجة الحضرية لبعض مدن اليوم، التي تعبّر بصور مختلفة عن مفهوم الطبقات. على أن أهمية هذه الطبقات ليست في أشكالها المعمارية ولكن في وظيفتها وطبيعتها الاجتماعية. كما تجسد الأغلفة الخارجية لبعض المباني مفهوم الطبقات بصور مختلفة. وفي معظم الحالات، فإن هذه الطبقات تعكس العمارة الحديثة وما بعد الحديثة أكثر من كونها طبقات ذات مرجعية ثقافية إسلامية.

المدينة العربية اليوم هي تكرار غير متجانس لمبانٍ غير متجانسة، وهو ما أفقد المدينة العربية، اليوم، وحدتها في المظهر والشكل الذي حافظت عليه عدة قرون.

وضمن التحول الشامل الذي شهده تخطيط المدينة العربية والإسلامية اليوم، حدث التحول الكبير في الشكل العام للمدينة. فقد حل البلوك الجديد المحاط بأربعة شوارع بارتدادات جانبية محل البيت التقليدي ذي الشكل غير المنتظم بفناءه المركزي. هكذا أصبح البلوك الجديد هو

وحدة التكرار في المدينة العربية اليوم. وقد نتجت منه بالتالي مدن متشابهة عمارتها في كل شيء، بدءاً بمساحة البلوك الواحد وصولاً إلى أدق تفاصيل البناء في المنشآت المقامة على كل بلوك على حدة، سواء أكانت تلك منشآت تجارية أم حكومية أم سكنية.

في النسيج التقليدي للمدينة العربية لم يكن التكرار يعني التشابه بل كان يعني إضافة عددية مختلفة الحجم والشكل. وقد ساهمت وحدة مادة البناء وأساليبه في وحدة عامة في شكل المدينة العام. أما اليوم، فإن تساوي مساحات البلوكات وبرامجها الوظيفية وارتداداتها واختلاف مواد البناء قد أدى إلى تكرار مبانٍ تفتقد إلى كثير من التجانس المطلوب لصهرها في جملة عمرانية واحدة. المدينة العربية اليوم هي تكرار غير متجانس لمبانٍ غير متجانسة، وهو ما أفقد المدينة العربية، اليوم، وحدتها في المظهر والشكل الذي حافظت عليه عدة قرون. هذا على مستوى المدينة، أما على مستوى هياكلها، فإن هنالك عدداً لا بأس من المباني والمجمعات السكنية أو المؤسساتية التي توظف مفهوم التكرار بأسلوب خلاق، سواء أكان ذلك في القرى أم المنتجعات السياحية على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، أم في بعض المجمعات السكنية في شمال أفريقيا وبلاد الشام أو في تركيا وإيران وبنغلادش. وتعتمد عمارة هذه المجمعات السكنية والمؤسساتية على مفهوم التكرار في الأحجام والكتل والفراغات بشكل حاسم. غير أن الموديول، وحدة بناء الهياكل الإسلامية، ما زال هو الشكل الأكثر وضوحاً لمفهوم التكرار في العمارة الإسلامية اليوم، وقد تجلّى ذلك بصور مختلفة في عدد من المباني في جميع أنحاء العالم الإسلامي. إن ما يجعل

الموديول أداة مفضلة في البناء المعاصر اليوم هو سهولة تطبيقه وبناءه، وإمكانية تطويره لأي برنامج وظيفي، وقابليته المستمرة للتمدد. وهناك من الأمثلة على ذلك الشيء الكثير.

- ٨ -

ويرجى الكاتب إلى الفصل الأخير بت الجوانب المتعلقة بمنهج الكتاب وأهدافه، والعمارة الإسلامية ومدلولاتها وما يتعلق بها من جوانب فكرية وعملية.

يبدأ هذا الفصل الثامن بالإشارة إلى الواقع المر الذي تشهده العمارة الإسلامية اليوم على صعيد التعليم والممارسة والفهم الاجتماعي. وبدءاً بتعريف المصطلح، يعرّج الكاتب بإيجاز على مفهوم العمارة الإسلامية ومدلولاته الأكاديمية والمعرفية والتفاسير المختلفة المصاحبة له. بعد ذلك يتطرق الكاتب إلى التشابه الحاصل بين شكل العمارة الإسلامية وبعض أشكال المدن الأوروبية في القرون الوسطى. وبعد أن يشير إلى بعض أوجه هذا الشبه يسهب في هذه الجزئية ليوضح الفوارق الرئيسية في كلتا الحالتين. ثم يتطرق إلى أهمية الشكل في العمارة عموماً، والعمارة الإسلامية بوجه خاص. ربما كان الشكل هو الجانب الأكثر استحواداً على الاهتمام والأكثر إمتاعاً في العمارة الإسلامية، بغض النظر عن آليات بنائه والمعاني المرتبطة به، وهو ما يجعل منه موضوعاً حاضراً باستمرار في هذه العمارة. أما بالنسبة إلى المهندسين المعماريين، فإن أهمية الشكل تطفئ على كل شيء، وهو ما يؤكد الدور المهم الذي تضفيه هذه الدراسة.

وفي معرض الحديث عن العمارة الإسلامية كتراث، يتطرق الكاتب إلى تقليدية النظرة إلى جميع أوجه التراث في الثقافة الإسلامية، ومنها العمارة. لقد تم حشر العمارة الإسلامية في زاوية ضيقة ونُظر إليها على أنها بقايا محنطة من الماضي ضمن قوالب جامدة ساهمت في الوضع المتردي الذي تعيشه العمارة الإسلامية اليوم. وهنا يشير الكاتب إلى وجوب إعادة النظر إلى العمارة الإسلامية ليس كتراث أكل عليه الدهر وشرب، ولكن كملهم ورافد من روافد الإبداع الذي ما زلنا ننتظره بفارغ الصبر. هناك أيضاً مقارنة سريعة بين المفاهيم الخمسة التي قدمها المؤلف لنظريته وأفكار المخطط الأمريكي كيفن لنش. وبالرغم من الاختلاف الجذري في الآليات المتبعة في الوصول إلى كلا المنهجين، فإنه يبدو أن هناك قواسم مشتركة بينهما ما زالت بحاجة إلى البحث والتحليل. وفي الختام يؤكد المؤلف عالمية العمارة الإسلامية.

إن ظاهرة كونية بحجم العمارة الإسلامية بامتدادها الزمني والجغرافي تختزن في أحشائها صوراً وأشكالاً ومفاهيم لعمارة ما زالت تنتظر من يقدمها إلى العالم في سياق ثقافي جديد. هذه هي المهمة المنوطة بالمعماريين العرب اليوم. ويبقى ذلك كله مرهوناً بالسياسات التعليمية والمهنية المتبعة في التعرف على الذات والتواصل مع الآخر لبناء عمارة عربية وإسلامية معاصرة ذات توجه حضاري كوني. وهي مهمة تأخرت كثيراً □